ترتيب نزول القرآن

إعداد

أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

قسم الدراسات الإسلامية – كلية التربية

جامعة الملك فيصل

الأحساء – المملكة العربية السعودية

١٤١٨هـ

ملخص البحث

تدور رُحى هذا البحث حول بعض الآثار الضعيفة في ترتيب نزول القرآن، وقد سارت هذه الآثار موضع التسليم والإذعان حتى راح العلماء يعتبرونها حقائق مسلَّمة، وحتى ذهب فريق إلى ترتيب تفسيره على هذا الأساس الباطل؛ لذا ناقشت هذه الآثار الموهمة للترتيب النزولي، وبينت بالدليل والبرهان القاطع فسادها وبطلانها، وبينت أن المكتوب في بعض طبعات القرآن أن هذه السورة بعد أو قبل الأخرى هو تهمة يجب أن نترفع عنها.

كما أوردت الأحاديث التي وردت بحرف العطف «الواو»، وبينت ضعفها، وأوردت الأحاديث التي وردت بحرف العطف «ثم»، وأنها أيضًا ضعيفة، والزعم بأنها مقيدة لمطلق أحاديث الأولى، هو زعم باطل أيضًا، كما أوردت أقوال وآراء لبعض العلماء المعاصرين ما بين مؤيد وناقد، ومنهم من في قوله نظر، كما بينت بالبراهين النقلية والعقلية المعارضة للترتيب المزعوم لبعض سور القرآن، وبهذا أثبتُّ أن ما استهلت به سور القرآن بالادعاء على القبلية والبعدية هو دعوى في غاية البعد، ولا يمكن ترتيب النتائج على ذلك.

كما دعوت الهيئات التي تقوم على طباعة المصاحف أن تترفع عن ذكر ذلك قبل استهلال السور بالبسملة.

Abstract

This article looks into some week points about the order in which the Qur'an was revealed. Such points were taken for granted and even some scientists considered them facts-moreover another group of scientists interpreted the Quran accordingly. This article showed with pieces of evidence and proofs that such claims were deviant and baseless. Furthermore، it showed that the order of the Suras in some of the that Quran impressions is an accusation and should be avoided..

This article presented the Hadeeth with the conjunction waw and that with the conjunction thumma and showed them to be week. It also presented the opinions of some scientists who are against، these the pro ،and those who take a middle stand.

Finally، this article showed with narrative and mental proofs that the alleged order is inaccurate and should be not adopted and written down before the basmalah in new impressions of the Quran.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على أشرف خلقه، وعلى آله وصحبه وسلم... وبعد: فإن الحديث عن نزول القرآن متعدد الجوانب، مختلف الموضوعات. وقد استهل المؤلفون –القدامى والمحدثون – الحديث عنه في مؤلفاتهم؛ لأن العلم بنزول القرآن متقدم على بقية العلوم الأخرى. وهو سابق بالضرورة سبق أصالة ووجود – على حد تعبير أحد العلماء – لذا جعله السيوطي في مقدمة الأبحاث والأنواع. وقد حذا حذوه الشيخ الزرقاني في مناهله، وغزلان في بيانه، وأبو شهبة في مدخله، وتعددت جوانب هذا النزول:

– ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة ، أسباب النزول، كيفية النزول، نزوله على سبعة أحرف، ترتيب النزول، وغير ذلك من مهمات النزول، زمانًا، ومكانًا، وأحوالاً... وقد قامت نظريات في كل جانب، لكن بقي الحديث صعبًا عن الترتيب الزمني للنزول. فمنذ عهد عثمان بن عفان — رضي الله عنه – وهذا الموضوع موضع أخذٍ ورَدٍّ. فقد ساق السيوطي رواية عن علي بن أبي طالب، أنه رتَّب مصحفه حسب النزول، فقام عثمان، وأمر بحرقه، وساق رواية أخرى عن التابعين. فقد روي أن محمد بن سيرين سأل عكرمة عن جمع القرآن، وترتيب القرآن حسب نزوله، قال: «فقلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل، الأول فالأول. قال: لو اجتمعت الإنس والجن، على أن يؤلفوه ذلك الترتيب ما استطاعوا». [1]

فالأمر صعب المنال. وقد جزم صاحب الظلال بتعذر ذلك فقال: «إن الترتيب الزمني للنزول، لا يمكن القطع فيه بشيء. ولا يكاد الإنسان يجد فيه شيئًا مستيقظًا، إلا في آيات معدودات، تتوافر بشأنها الروايات».[2]

أو على حد تعبير أحد المؤلفين: «فدون ذلك خرط القتاد» ويمضي صاحب الظلال قائلاً:

---

(١) الإتقان ج ٢٠٤/١.

(٢) في ظلال القرآن، سورة الأنفال ص ١٤٢٩.

«وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره، وفق الترتيب الزمني للنزول، ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية، ومراحلها، وخطواتها، فإن قلة اليقين في هذا الترتيب، تجعل الأمر شاقًّا، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية يقينية، وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية، نتائج أخرى خطيرة»، ثم قال: «إن ترتيب القرآن وفق النزول، لا سبيل اليوم فيه إلى يقين». [1]

وقد قام الشيخ محمد عزة دروزة بترتيب تفسيره القرآني (الموسوم بالتفسير الحديث) ترتيبًا زمنيًّا، حسب نزول القرآن، فبدأ بتفسير سورة: اقرأ، ثم سورة ن، والقلم، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم انتهى من السور المكية، وبدأ بالسور المدنية حتى نهايتها.

وقد أثار تفسيره ثائرة العلماء، حتى اضطر إلى استفتاء الشيخ عبد الفتاح أبو غدة [2]. فأفتى بجواز الأمر؛ لأن هذا ليس ترتيبًا قرآنيًا لآيات القرآن، بل هو ترتيب تفسيري لآيات القرآن. وقد أحب صاحبه أن يتتبع التفسير القرآني، حسب تاريخ النزول، وهو يُعين كثيرًا في فهم الأحداث القرآنية، كما يُعين في تتبع المراحل الزمنية للدعوة الإسلامية، وقد سبق للمؤلف أن تتبع سيرة الرسول ﷺ من خلال الآيات القرآنية، عبر مراحلها الزمنية، وقد أفاد سيد قطب من هذه الدراسة، وإن لم يسلم الأستاذ دروزة من نقده في مواضع أخرى، وعلى الرغم من نهج دروزة هذا النهج المتميز في التفسير، إلا أنه ينقصه كثير من تحرير بعض المواضع في ترتيبها النزولي، ولم يقف موقف الناقد البصير لهذا الترتيب، وقد غرَّه السيوطي – ومن سبقه – في هذا الترتيب الخاطئ، ولم يحسن الفهم للآثار التي ساقوها. ويرى إبراهيم خليفة أن عمل دروزة في هذا الترتيب للتفسير منكر، وهو على غاية الغرابة، وخارج عن حد اللياقة. وكان الأجدر به أن يرتب تفسيره على الترتيب المصحفي الذي عدل به نقلاً وإجماعًا بالكلية عن ترتيب النزول.

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٤٢٩و ١٤٣١.

(٢) انظر مقدمة كتاب اتجاهات التفسير في العصر الراهن د. عبد المجيد المحتسب.

وثاني ما دعاني للكتابة: هو تسليم كثير من المؤلفين لهذا الترتيب الخاطئ، وقد دونوا أخطاءهم في المصاحف، ففي بداية السور، تراهم يكتبون أن هذه السورة نزلت بعد سورة كذا، ويعتبرون الآثار المروية قضايا مسلَّمة. وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، ولقد راعني ما قرأت من أن سورة محمد – صلى الله عليه وسلم – قد نزلت قبل الأنفال. ووجدت قولاً مخالفًا، وهو: أن سورة الأنفال نزلت قبل سورة محمد – صلى الله عليه وسلم – ولا شك أن أحد القولين خاطئ. فرُحتُ أستعرض الآثار، فعرفت مكمن الخطأ.

وثالث ما دعاني للكتابة: ما قيل من أن الأستاذ محمد عبد الله دراز قد كتب في هذا الموضوع في مطلع الخمسينات في مجلة الأزهر. وقد تناول جانبًا منه على ما أخبرني أحد الثقات. وقد كلفت أحد الثقات بمراجعة إدارة الأزهر قسم الفتوى، وحاول جاهدًا الحصول على هذا الموضوع. ولكنه لم يجد له أثرًا ولا خبرًا. فاستعنت بالله راجيًا عونه وتوفيقه.

هذه الدواعي والبواعث، هي الجدوى، والهدف للكتابة في هذا البحث، ألا وهو: سوق حديث ترتيب النزول، كما ورد في علوم القرآن، على أنه قضية ثابتة مفروغ منها على أنها ثبتت بأوثق الأدلة، مع أن واقع الأمر أن هذا الترتيب لم يأت فيه شيء يُعوَّل عليه عن واحد من الصحابة – رضي الله عنهم – فحسب فضلًا عما فوق الواحد. ودع عنك أن يكون قد ثبت فيه شيء عن المعصوم ﷺ، بل قصارى ما جاء في الترتيب، آثارٌ بالغة الضعف يأتيها الخلل من بين يديها، ومن خلفها، سندًا ومتنًا، نقلًا وعقلًا بحيث لا تجدي في هذا المجال المهم شرْوَى نقير.

أما الهدف من هذا الموضوع فهو بيان هذه القضية، ومناقشتها؛ حتى يُعلم أن الترتيب الذي يوهم ترتيب النزول هو ترتيب مصحفي، لا يمت إلى الترتيب النزولي بصلة، ولا يصحُّ الاعتماد عليه بحال من الأحوال، وإن من الأمور التي لفتت نظرنا منذ زمن ليس باليسير، ما نراه في طبعات مصاحفنا المختلفة، تقدمتها على نص السورة، الحديث عن ترتيب نزولها، حتى لكأن ذلك قضية مسلَّمة لا مرية فيها من قِبَل الجميع، أو أنه الصحيح المعوَّل عليه من أقوال أهل العلم المسندة،

وقد راق ذلك الكثرة الكاثرة من الباحثين على اختلاف مشاربهم، وتعدد مناحي تخصصاتهم، وأصبح هذا الأمر غير قابل للمناقشة.

هذا، وقد بدأت البحث بذكر الآثار الواردة في هذا الموضوع، ثم مناقشتها سندًا ومتنًا، ثم أقمت الدليل والبرهان، على مخالفة هذه الآثار لما هو أقوى منها، مثبتًا عكس دعواها من خلال مناقشة أمثلة صحيحة وواضحة. ثم خلصت إلى نتائج مهمة في هذا البحث.

أولًا: الآثار الموهمة للترتيب الزمني لنزول السور القرآنية

أ – الآثار الواردة في ترتيب السور حسب نزولها وفيه، ما ورد معطوفاً بحرف الواو:

قال ابن سعد في الطبقات[1]: أنبأنا الواقدي، حدثني قدامة بن موسى، عن أبي سلمة الحضرمي، سمعت ابن عباس، قال: سألت أبيّ بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة؟ فقال: «نزل بها سبع وعشرون سورة». وسائرها بمكة.

وقال أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ [2]: حدثني يموت بن المزرع، حدثنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، أنبأنا أبو عبيدة معمر بن المثنى. حدثنا يونس بن حبيب، سمعت أبا عمرو بن العلاء، يقول: سألت مجاهدًا عن تلخيص آي القرآن: المدني من المكي فقال: سألت ابن عباس – رضي الله عنهما – عن ذلك، فقال: «سورة الأنعام نزلت بمكة، جملة واحدة، فهي مكية، إلا ثلاث آيات منها، نزلن بالمدينة: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ... ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث، وما تقدم من السور مدنيات.

ونزلت بمكة: سورة الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل، – سوى ثلاث آيات من آخرها، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرفة من أُحُد – وسورة بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج – سوى ثلاث آيات ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ...﴾ إلى تمام الآيات الثلاث، فإنهن نزلن بالمدينة – وسورة المؤمنون، والفرقان، وسورة الشعراء – سوى خمس آيات من آخرها نزلن بالمدينة: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ..﴾ إلى آخرها.

وسورة النحل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان – سوى ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة –: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ...﴾ إلى تمام الآيات – وسورة السجدة –سوى ثلاث آيات –: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٣٧١.

(٢) انظر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ ص ٣٤.

وسورة سبأ، وفاطر، ويس، والصافات، وص، والزمر – سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة –: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا. . ﴾ إلى تمام الثلاث آيات، والحواميم السبع، وق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة، والصف، والتغابن – إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة – والملك، ون، والحاقة، وسأل، وسورة نوح، والجن، والمزمل – إلا آيتين –: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىَ ... ﴾، والمدثر ... إلى آخر القرآن، إلا: إذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، فإنهن مدنيات.

ونزل بالمدينة سورة الأنفال، وبراءة، والنور، والأحزاب، وسورة محمد – صلى الله عليه وسلم – والفتح، والحجرات، والحديد ... وما بعدها إلى التحريم.

هكذا أخرجه بطوله، وإسناده جيد، رجاله كلهم ثقات، من علماء العربية المشهورين.[1]

وقال البيهقي في دلائل النبوة [2]: أنبأنا أبو عبدالله الحافظ، أخبرنا أبو محمد بن زياد العدل، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدروقي. حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، حدثني يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالا: «أنزل الله من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ون، والمزمل، والمدثر، وتبت يدا أبي لهب، وإذا الشمس كورت، وسبح اسم ربك الأعلى، والليل إذا يغشى، والفجر، والضحى، وألم نشرح، والعصر، والعاديات، والكوثر، وألهاكم التكاثر، و أرأيت، وقل يا أيها الكافرون، وأصحاب الفيل، والفلق، وقل أعوذ برب الناس، وقل هو الله أحد، والنجم، وإنا أنزلناه، والشمس وضحاها، والسماء ذات البروج، والتين والزيتون، ولإيلاف قريش، والقارعة، ولا أقسم بيوم القيامة، والهمزة، والمرسلات، وق، ولا أقسم بهذا البلد، والسماء والطارق، واقتربت الساعة، وص، والجن،

(١) الإتقان ١/١٣.

(٢) انظر البيهقي في كتابه الدلائل، وانظر السيوطي في الإتقان.

ويس، والفرقان، والملائكة (فاطر)، وطه، والواقعة، وطسم، وطس، وبني إسرائيل، (الإسراء) والتاسعة، وهود، ويوسف، وأصحاب الحجر، والأنعام، والصافات، ولقمان، وسبأ، والزمر، وحم المؤمنون، وحم الدخان، وحم السجدة، وحم عسق، وحم الزخرف، والجاثية، والأحقاف، والذاريات، والغاشية، وأصحاب الكهف، والنحل، ونوح، وإبراهيم، والأنبياء، والمؤمنون، وألم السجدة، والطور، وتبارك، والحاقة، وسأل، وعم يتساءلون، والنازعات، وإذا السماء انشقت، وإذا السماء انفطرت، والروم، والعنكبوت.

وما نزل بالمدينة: ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والمائدة، والممتحنة، والنساء، وإذا زلزلت، والحديد، ومحمد، والرعد، والرحمن، وهل أتى على الإنسان، والطلاق، ولم يكن، والحشر، وإذا جاء نصر الله، والنور، والحج، والمنافقون، والمجادلة، والحجرات، ويأيها النبي لم تحرم، والصف، والجمعة، والتغابن، والفتح، وبراءة.

قال البيهقي: والتاسعة يريد بها سورة يونس، قال: وقد سقط من هذه الرواية: الفاتحة، والأعراف، وكهيعص، فيما نزل بمكة.

قال أبو عبيد في فضائل القرآن[1]:

حدثنا عبد الله بن صالح، ومعاوية بن صالح، عن ابن أبي طلحة، قال: نزلت بالمدينة: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريين - يريد الصف - والتغابن، ويا أيها النبي إذا طلقتم النساء، ويا أيها النبي لم تحرم، والفجر والليل، وإنا أنزلناه في ليلة القدر، ولم يكن، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، وسائر ذلك بمكة.

(١) الإتقان ١/١٤.

ب- الآثار المفيدة لترتيب نزول سور القرآن على التراخي.

وردت الآثار معطوف بعضها على بعض بالحرف «ثم» الذي يفيد الترتيب المتراخي.

وقال ابن الضريس في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الرازي، أنبأنا عمرو بن هارون، حدثنا عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: كانت إذا أنزلت فاتحة الكتاب(١) بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أول ما أنزل من القرآن: اقرأ باسم ربك ثم ن، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك الأعلى، ثم والليل إذا يغشى، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم ألهاكم التكاثر، ثم أرأيت الذي يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم ألم تر كيف فعل ربك، ثم قل أعوذ برب الفلق، ثم قل أعوذ برب الناس، ثم قل هو لله أحد، ثم والنجم، ثم عبس، ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر، ثم والشمس وضحاها، ثم والسماء ذات البروج، ثم والتين، ثم لإيلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم ويل لكل همزة، ثم والمرسلات، ثم ق، ثم أقسم بهذا البلد، ثم والسماء والطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص، ثم الأعراف، ثم قل أوحى، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم طسم الشعراء، ثم طس، ثم القصص، ثم بني إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حم عسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم إنا أرسلنا نوحًا، ثم سورة إبراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنون، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم يتساءلون، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين. فهذا أنزل بمكة.

---

(١) لا يعني هنا من فاتحة الكتاب السورة المشهورة، التي هي أم القرآن، وإنما يعني من كلمة فاتحة أول، ومن كلمة الكتاب السورة من إطلاق اسم الجنس على بعض أفراده، وانظر فضائل القرآن، لابن الضريس ص ١٣، والإتقان ج١ ص١٤.

ثم أنزل بالمدينة: سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة». [1]

الأثر الثاني:

في الآثار الواردة بإفادة الترتيب النزولي المتراخي بالحرف «ثم».

وقال أبو بكر محمد بن الحارث بن أبيض، في جزئه المشهور: حدثنا أبو العباس عبيد الله بن محمد بن أعين البغدادي، حدثنا حسان بن إبراهيم الكرماني، حدثنا أمية الأزدي، عن جابر بن زيد. قال: «أول ما أنزل الله من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ثم ن، والقلم، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم الفاتحة، ثم تبت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك الأعلى، ثم والليل إذا يغشى، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم الكوثر، ثم ألهاكم، ثم أرأيت الذي يكذب، ثم الكافرون، ثم ألم تر، والنجم، ثم عبس، ثم إنا أنزلناه، ثم والشمس وضحاها، ثم البروج، ثم والتين، ثم البلد، ثم اقتربت الساعة، ثم ص، ثم الأعراف، ثم الجن، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم الشعراء، ثم طس سليمان، ثم طسم القصص، ثم بني إسرائيل، ثم التاسعة – يعني يونس – ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حم الزخرف، ثم حم الدخان، ثم حم الجاثية، ثم حم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم حم الجاثية، ثم تنزيل السجدة، ثم الأنبياء، ثم النحل، أربعين، وبقيتها بالمدينة، ثم إنا أرسلنا نوحًا، ثم الطور، ثم المؤمنون، ثم تبارك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم يتساءلون، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين، فذاك

(١) الإتقان ج١ ص١٤.

ما أُنزل بمكة.[1]

وأنزل بالمدينة: سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم الأنفال، ثم الأحزاب، ثم المائدة، ثم الممتحنة، ثم إذا جاء نصر الله، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم سبح الحواريين، ثم الفتح، ثم التوبة. خاتمة القرآن».

قلت: هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن، وقد اعتمد البرهان الجعبري على هذا الأثر في قصيدته التي سماها: تقريب المأمول في ترتيب النزول:

ليل وفجر والضحى شرح وعصر العاديات وكوثر ألهاكم تلا

أرأيت قل بالفيل مع خلق كذا ناس وقل هو نجمها عبس جلا

قدر وشمس والبروج وتينها لإيلاف قارعة قيامة أقبلا..إلخ

هذه جميع الآثار التي ساقها السيوطي، وقد استوفاها، واستقصاها، ولم يفته أثر ولا خبر في إفادة ترتيب النزول بالحرف «ثم» المفيد للترتيب المتراخي.[2]

ثانيًا: النقد الموضوعي لهذه الآثار:

سبق وأن ذكرنا الآثار الواردة، وقد ذكرَت حرفين من حروف العطف، وهما: «الواو»، و«ثم».

أما الآثار الواردة بحرف الواو، فإن الواو في لغة العرب، لا تفيد في العطف، إلا مطلق الجمع، فلا تفيد ترتيبًا، وتعقيبًا، ولا ترتيبًا متراخيًا – فالآثار وإن صحت الرواية عن ابن عباس، لا تفيد الترتيب لسور القرآن، لا الترتيب النزولي، ولا غيره» ولولا أن الترتيب المصحفي هو أمر معلوم لنا من واقع المصحف الشريف الذي أجمع عليه الصحابة – رضوان الله عليهم – ما أفدنا

(١) انظر فضائل القرآن ص ٣٣.

(٢) الإتقان ٩٦ –٩٨ محقق من طلبة الدراسات العليا بالقاهرة، مخطوط ص ١٤.

أي نوع من الترتيب، من مثل هذه الآثار، على نحو ما هو واقع المصـــحف الإمام الذي أجمع عليه الصحابة – رضي الله عنهم –.[1]

على أن المدقق في هذه الآثار يلاحظ فيها اضطرابًا من حيث الزيادة والنقصان، ومن حيث التقديم والتأخير، فقدَّمت ما حقه التأخير، وأخَّرَت ما حقه التقديم، وما دام أمر هذه الآثار بهذه الحال، فلا يصلح أن نعوِّل عليها في إفادة الترتيب الزمني لنزول السور القرآنية.

أما الآثار الواردة بحرف العطف «ثم» فأثران ضعيفان كما نص على ذلك علماء الحديث:

فالأثر الأول: رواه ابن الضريس في فضائل[2] القرآن، وهو مروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –. وقد أفاض محقق كتاب الفضائل في نقد هذا الأثر من عدة أوجه، منها:

١) أن فيه عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه، وعثمان ضعيف، وعطاء الخراساني وإن كان صدوقًا إلا أنه يخطئ كثيرًا ويدلس، وقد عنعن في الأثر، ومعلوم أن المدلس إذا عنعن لم يقبل أثره، إذ لا يُغتفر تدليسه.

٢) أما الأثر الثاني، فهو أثر أبي بكر محمد بن الحارث بن أبيض عن جابر بن زيد – من علماء التابعين بالقرآن – وهو أثر ضعيف؛ لأن فيه حسان بن إبراهيم الكرماني، وهو صدوق يخطئ، ويكثر تفرده بالمناكير، كما أن في سنده أمية بن زيد الأزدي، وهو وإن كان مقبولًا، ولكن شرط الحافظ ابن حجر المتابعة في الرواية، وهنا لم يتابع كما قال ابن حجر في مقدمة تقريبه.

قال الحافظ السيوطي عن هذا الأثر: «قلت: هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وهذا يدل على أن هذا الأثر لم يتابع»، لذا حكم على هذه الرواية بالضعف، فلا يحتج بها في هذا المقام.

---

(١) حولية أصول الدين ٥٢.

(٢) كتاب فضائل القرآن، لابن الضريس، وانظر الإتقان ج١ ص ١٤، قام الأستاذ غزوة بدير بتحقيق هذا الكتاب، ونشرته دار الفكر، بدمشق.

مما سبق يتضح لنا أن هذه الآثار الواردة بالواو تارة، و"بثم" تارة، لا تفيد شيئًا في الترتيب النزولي للسور القرآنية، فحرفا العطف «الواو»، و«ثم» هما لفظان مختلفان من حيث المعنى، فالواو تفيد معنى لا تقتضيه «ثم» .«ولِثُمَّ» معنى لا تقتضيه «الواو»، وكلاهما لم يفد في الترتيب النزولي للسور. أما الروايات الواردة بحرف «الواو»، فإنها وإن صحت لا تفيد الترتيب في قليل ولا كثير.

أما الروايات الواردة بالحرف «ثم»، فإنها وإن أفادت الترتيب الزمني المتراخي إلا أنها لم تصح سندًا، فسقط الاستدلال بها، وبعبارة موجزة: «إن الروايات التي صحت سندًا لا تفيد ترتيبًا، والروايات التي أفادت الترتيب لم تصح سندًا»، وعلى كلا الحالين سقط الاستدلال بالروايتين: الواو، وثم».

ثالثًا: البراهين النقلية والعقلية المعارضة للترتيب المزعوم لبعض سور القرآن:

لقد وردت الآثار والأخبار الصحيحة بإثبات عكس الترتيب السابق، ولا يتسع المجال لذكرها جميعًا، فنكتفي بإثبات بعضها:

١) وردت الآثار كأثر ابن الضريس عن ابن عباس، وأثر ابن أبيض، عن ابن زيد السابق ذكرها أن أول ما نزل: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» ثم سورة: «ن والقلم» ثم سورة «المزمل» ثم «المدثر» على التوالي، وهو ترتيب مخالف لما ورد في صحيح البخاري ومسلم، عن عائشة – رضي الله عنها – في بدء الوحي، قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ... » ثم روت نزول سورة اقرأ حتى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.(١)

ثم فتر الوحي عقب نزول الآيات الخمس من سورة العلق كما في حديث البخاري ومسلم، ثم نزل الوحي أول ما نزل بصدر سورة المدثر في الآيات الخمس: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ..﴾ حتى قوله

(١) سورة العلق، الآيات: ١– ٥ ، انظر حديث بدء الوحي ج٢ /٢٠٨.

تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾. وقد روى الإمام البخاري نزول صدر سورة المدثر من خمس طرق، وإنما فعل ذلك البخاري، لحكمة مقصودة من تعداد هذه الطرق. فقد رواه أولاً عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن، عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت. فقال جابر: قال النبي ﷺ «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري، هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئًا، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبوا على ماء باردًا، فدثروني، وصبوا على ماء باردًا، فنزلت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (١)، ورواه ثانيًا وثالثًا، عن يحيى بن أبي كثير، في باب قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ثم ساق تلك الرواية.

أما الرواية الرابعة: فقد رواها عن الزهري، وقال: فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبًا، فقلت: زملوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. . . ﴾ إلى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

وبمثل هذه الرواية، رواه خامسًا في باب: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

وقد استعصى على الباحثين تأويل هذه الأحاديث المروية عن جابر، فجازف الإمام النووي، وحكم ببطلان هذه الأحاديث الثابتة في صحيحي البخاري ومسلم.

أما الكرماني، فقال: «إن جابرًا — رضي الله عنه – استخرج ذلك باجتهاده، وليس من روايته، فيُقَدَّمُ عليه ما روته عائشة — رضي الله عنها – في نزول سورة: ﴿اقْرَأْ﴾».

وذهب آخرون إلى أن جابرًا وصاحبه أخطآ في فهم النص، وكأنهما لم يسمعا بقصة نزول

(١) سورة المدثر، الآيتان ١– ٢.

الملك بحراء، ولا وعيا أوجه دلالة النص الذي استند إليه.[1]

أو لعل جابرًا لم يكن قد وصل إلى علمه شيء من قصة حراء، وما نظن أن أحدًا يزعم أن كل صحابي يجب عليه أن يحيط علمًا بجميع جزئيات وقائع الوحي.

وقد حسم ابن حجر العسقلاني هذه المسألة حسمًا حكيمًا وموفقًا، فقال: «دل قوله: «عن فترة الوحي». وقوله «الملك الذي جاءني بحراء» على تأخر سورة المدثر، عن اقرأ، ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أول ما نزل، ورواية الزهري هذه صحيحة ترفع الإشكال.

لا يصح بعد هذا التحقيق الدقيق من ابن حجر العسقلاني أن يختلف اثنان في أن أول ما نزل هو سورة اقْرَأْ، ثم صدر سورة الْمُدَّثِّرُ، ولو نزلت سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ وسورة المزمل، قبل سورة الْمُدَّثِّرُ؛ لذكر ذلك. وبهذا يثبت لنا خطأ دعوى ترتيب النزول الزاعم بأن سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ ﴾ والمزمل نزلتا قبل المدثر..

وقد جزم ابن حجر العسقلاني وغيره بأن الأول هو سورة: اقرأ، ثم المدثر، ومما يؤكد هذا المعنى أن الجو العام لكل من السورتين: اقرأ والمدثر، ملائم ومناسب، وينافره أتم منافرة توسط سورتي القلم والمزمل بينهما. ولعل مراجعة أسباب النزول لهذه السور، تريك الحقيقة الناصعة في خطأ هذا الترتيب المزعوم: اقرأ أولًا، نون والقلم ثانيًا، والمزمل ثالثًا، ثم المدثر رابعًا، وأخيرًا.

٢) ورد في الآثار السابقة أن سورة النساء، قد نزلت بعد سورة الممتحنة، وقد أثبت كثير من العلماء الأفاضل ما يفيد عكس هذه الدعوى، وندع الكلام لمفسر سورة النساء – تفسيرًا تحليليًا – وهو يرد هذه الدعوى بأسطع البراهين، يقول هذا المفسر:[2] «إنك ترى المعنيين بهذا الترتيب يصرحون بنزول سورة النساء بعد الممتحنة، مع أن مجرد المطالعة حتى غير المتأنية

(١) انظر كتاب محمد رسول الله «باب أول ما نزل» وحولية أصول الدين، عدد عام ١٩٩٥ م.

(٢) إبراهيم خليفة رئيس قسم التفسير بالأزهر، تفسير سورة النساء، تفسير تحليلي ص ٨٣.

للمعقول من حكمة الله في تشريعه، ثم لوقائع التاريخ، وأسباب النزول لنجوم السورتين الكريمتين تقطع ببطلان القول بهذا الترتيب هنا، وإلا فخبرني بربك، هل من المعقول في شيء إن كان يتأخر الحكم في الميراث، وفي ظلم النساء بعادات أهل الجاهلية المعروفة في ذلك، والحكم في بيان ما يحرم من النكاح، وما يحل من النساء، وفي تحريم السفاح واتخاذ الأخدان، وغير ذلك مما لا يتصور العقل الصحيح فيه، إلا أن يكون باكورة مبكرة، في تأسيس بنيان المجتمع المسلم، وتنظيم سلوكه؟.

نقول: هل من المعقول في شيء إن كان يتأخر ذلك إلى ما بعد الحديبية، بل إلى ما قبيل فتح مكة، حيث نزلت نجوم سورة الممتحنة؟.

فإذا انتقلت إلى وقائع التاريخ وسير الأحداث، فإنك واجد في سورتنا هذه ما تقطع الأخبار الصحاح بنزوله قبل الممتحنة بزمن طويل، من أمثال آيات المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [1] الآيتين النازلتين في شأن امرأة سعد بن الربيع المقتول في أُحد، ومن أمثال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [2] الآية النازلة في مرحلة من مراحل التدريج في تحريم الخمر، مع العلم بأن تحريمها بالكلية كان قبيل أُحد. ومن أمثال قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[3] النازل في اختلاف المسلمين، في شأن المنافقين الراجعين يوم أُحد.

ومن أمثال الآيات النازلة في شأن يهود كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾[4] الآيات الثلاث، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آَمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [5]، الآيات التي يعرف كل من طالع أسباب نزولها أنها كانت في يهود المدينة، مع العلم

---

(١) سورة النساء: آية: ١١.

(٢) سورة النساء: آية: ٤٣.

(٣) سورة النساء: آية: ٨٨.

(٤) سورة النساء: آية: ٣٧.

(٥) سورة النساء: آية ٤٧.

بأن آخرها قد استأصلت شأفتهم بعيد الخندق، وقبل الحديبية طبعًا.

ومن أمثال ما نزل في شأن صلاة الخوف التي شُرعت عند الحديبية، أو قبيلها. فأين ذلك كله من نزول أغلب الممتحنة في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وإفشائه خبر رسول الله ﷺ فيغزو قريش لفتح مكة، ومن نزول بعضها كآية الامتحان، بعد صلح الحديبية، وتخصيصًا لبعض عموم ما كان في ذلك الصلح من المعاهدة.

بل من حديث بعض آيات هذه السورة عن بيعة النساء التي لم تكن إلا بعد فتح مكة قطعًا. نعم في سورتنا هذه هي الأخرى، بعض النجوم المتأخرة النزول، كآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[1] على قوله. وآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.[2] ولكن سياق معظم السورة الكريمة موح إيحاءً بينًا بنزول أغلبها قبل سورة الممتحنة على أقل تقدير.

أما سيد قطب فقال معقبًا على القول الزاعم بأن سورة النساء نزلت بعد الممتحنة:

«هذه السورة مدنية، [3] وهي أطول سور القرآن، بعد سورة البقرة، وترتيبها في النزول بعد سورة الممتحنة التي تقول الروايات: «إن بعضها نزل في غزوة الفتح، في السنة الثامنة للهجرة، وبعضها في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة».

ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول – كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة، في الجزء الأول ليس قطعيًا، كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد. فقد كانت الآيات تتنزل من سور متعددة. ثم يأمر النبي ﷺ بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها، والسورة الواحدة على هذا كانت تظل (مفتوحة) فترة من الزمان تطول أو تقصر، وقد تمتد

---

(١) سورة النساء: آية: ٥٨.

(٢) سورة النساء: آية: ١٧٦.

(٣) د. إبراهيم خليفة، تفسير تحليلي لسورة النساء ص ٨٤. وسيد قطب، في ظلال القرآن، في مطلع تفسير سورة النساء.

عدة سنوات، وفي سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل في المدينة، وآيات من أواخر ما نزل من القرآن.

وكذلك الشأن في هذه السورة، فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة، وفي السنة الثامنة كذلك.

ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة، والمنتظر على كل حال أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة لهجرته إلى ما بعد السنة الثامنة حيث نزلت مقدمة سورة الممتحنة.

ونذكر على سبيل المثال، الآية الواردة في هذه السورة عن حكم الزانيات: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.(١)

فمن المقطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التي بينت حد الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .(٢)

وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك في السنة الخامسة (أوفى السنة الرابعة، على رواية) فقد قال رسول ﷺ حين نزلت: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا» (٣) ... إلخ.

وكان السبيل هو هذا الحكم الذي تضمنته آية النور، وفي السورة نماذج كثيرة كهذا النموذج، تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب.(٤)

---

(١) سورة النساء، آية: ١٤.

(٢) سورة النور، آية: ٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم في صحيحه، وابن ماجه.

(٤) في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٥٥٤.

انتهى كلام صاحب الظلال الذي أفاد أن الترتيب النزولي فيه نظر، وقد أبدى أحد العلماء ملاحظات حول هذا الكلام، ولا أحب الإطالة، وأترك للقارئ وفطانته أن يدقق النظر، ويرى ما يرى، والله أعلم.

وبعد: فقد وضَّح أن هذه الآثار المعاكسة تثبت خلاف الترتيب المتراخي المزعوم، وهو ما أردت بيانه، والله أعلم.

رابعاً: الآثار المترتبة على ترتيب النزول القرآني.

سبق وأن تحدثت عن صعوبة هذا الترتيب، وذلك لأمور منها:

١) تحقيق المعيار في اعتبار سورة سابقة لأخرى. هل يكون ذلك باعتبار نزول فاتحة السورة؟ أو يكون باعتبار نزول واكتمال النجم الأخير منها؟ أو بنزول غالبها؟ وهذا ما أحدث خلطًا صَعُبَ تحقيقه، كالذي ورد عن عثمان – رضي الله عنه – في أولية الأنفال، وآخرية سورة براءة دون بيان من رسول الله ﷺ لموجبها الترتيبي، ويبقى التساؤل قائمًا أن رسول الله ﷺ كان يأمر بوضع كل نجم قرآني، فيلحقه في مكان ما من سورة ما، فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة، التي يُذكر فيها كذا وكذا» [١] وقد تكتمل السورة سريعًا، وقد تمتد سنوات طوالاً. من ذلك أن سورة البقرة، من أول سور القرآن نزولاً في المدينة، ومع هذا فإن آخر ما نزل من القرآن – ابتداءً من آية الربا، وانتهاءً بآية الدين – قد نزل فيما بعد، بل قبيل وفاة الرسول ﷺ بتسع ليالٍ على وجه التقريب. لم يكن هذا النجم القرآني في آخر السورة بل كان ترتيبه: من الآية ٢٧٨ – ٢٨٢ وبعده آيات كانت نزلت قبل ذلك، ومع ذلك جاء ترتيبها الذكري بعد آخر نجم قرآني نازل – من أجل ذلك جزم من جزم أن ترتيب السور حسب النزول ... يحفه كثير من الاحتمالات التي يصعب تحقيق القول فيها، فدون ذلك خرط القتاد، أو دون ذلك بلوغ الأسباب أسباب...

(١) هذا القول فيه نظر، وفيه كلام طويل، لست في صدد الحديث عنه.

وبالجملة فإن ترتيب السور من حيث النزول، هو أمر معاكس لمنطق الواقع، والمعقول والمنقول جميعًا، لسبب يسير جدًّا، هو أنه غير كائن، ولا يمكن أن يكون أصلاً.

إن ترتيب سور القرآن حسب نزولها ليس من الأهمية بمكان -كما يتوهمه بعضهم - وهو مبني على الزعم القائل أن علي بن أبي طالب، قد جمع مصحفه على نحو هذا الترتيب، وهذا لم يصح بحال من الأحوال. وأما ما ثبت في الصحيح عن ابن مسعود — رضي الله عنه — قوله: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، فإنه عِلمٌ لو رأى ابن مسعود - رضي الله عنه - فائدة وأهمية بتبليغه لبلغه، وإلا كان كاتمًا للعلم الضروري، وهو إذ لم يفعل، فيدل على عدم الأهمية بمكان. من أجل هذا، بقي الترتيب المصحفي لسور القرآن على النحو الموجود، هو الترتيب المجمع عليه، ولا نرى غير هذا الترتيب بديلاً.

أما معرفة الترتيب النزولي فنكتفي بمعرفة نزول النجوم القرآنية المتفرقة في السور القرآنية. وهذا أمر يمكن التوصل إليه بمراجعة أسباب النزول أحيانًا، أو معرفة الوقائع، والأحداث، والمناسبات، التي نزلت بشأنها الآيات، أو بأخبار الصحابة — رضي الله عنه - الذين شاهدوا نزول الوحي السماوي على النبي ﷺ وجالسوا النبي ﷺ في شتى الأماكن والأزمان، وقد تأتي الآيات القرآنية بتصريحات، أو إشارات بأولية نزول نجوم الآيات القرآنية المتعلقة بتحريم الخمر. روى الطيالسي في مسنده عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «نزل في الخمر ثلاث آيات» فأول شيء: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.(١) ثم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.(٢)

قالوا: يا رسول الله، لا نشربها قرب الصلاة؟ فسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ... فقال رسول الله ﷺ:

(١) سورة البقرة: آية: ٢١٩.

(٢) سورة النساء: آية: ٤٣.

«حُرِّمت الخمر».

وقد قام العلماء في تتبع الآيات القرآنية في الموضوع الواحد، وراح يرتبها حسب نزولها الزمني.

مثاله: آيات الجهاد في الإسلام، وآيات السلم ومراحله. والدراسات الموضوعية قد عُنيت بترتيب النجوم القرآنية حسب نزولها. إذ بدون هذا الترتيب يختل الفهم، ويزل الباحث، ويضربون لذلك مثالاً: كالآيات السابقة الذكر في موضوع الخمر.

فماذا يمكن أن يُقال لو عكسنا الآيات، حسب ترتيبها النزولي؟ لا شك أننا سنخرج بنتيجة عكسية، ألا وهي: حل الخمر في غير أوقات الصلاة.

إن مراعاة ترتيب النجوم في الموضوع الواحد على جانب عظيم من الأهمية قد عَرف له الصحابة أنفسهم – رضوان الله عليهم – فرط أهميته، وجليل خطره، فنطقوا به صراحةً في الاستدلال على دعوى نسخ ما في بعض السور المتأخرة نزولًا لبعض ما تقدمها نزولًا، وذلك كالذي ثبت عن عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه – حين اختلفوا في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها حين تضع حملها قبل مُضِيّ أربعة أشهر وعشرًا، هل تنقضي عدتها بوضع الحمل أو لابد من انتظارها أربعة أشهر وعشرًا؟.

فما كانت حجة ابن مسعود — رضي الله عنه – على القول بالأول، إلا لعلمه بترتيب السور نزولًا، وأن سورة الطلاق التي جاء فيها أن عدة الحامل — أي: مطلقًا – هي بوضع الحمل متأخرة النزول عن سورة البقرة التي جاء فيها أن المتوفى عنها زوجها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرًا. وذلك حين قال – رضي الله عنه –: «أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة، لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى».[1]

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الطلاق.

الخاتمة وأهم النتائج:

١) الدعوة إلى تجريد القرآن من الأباطيل الزاعمة أن سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، أو نزلت قبل سورة كذا، وقد عمدت مطابع المصاحف في المدينة المنورة إلى تجريد المصاحف الجديدة من هذه الزيادات الباطلة.

٢) إن الترتيب المصحفي في التفسير القرآني، هو الأمر المتبع عند جميع المفسرين – قديمًا وحديثًا – ولم يعدل عنه أحد من المفسرين، إلا ما صنعه الأستاذ محمد عزة دروزه في تفسيره الموسوم بـ(التفسير الحديث) على أنه أخطأ في ترتيبه النزولي، فقدَّم ما حقه التأخير، وأخَّر ما حقه التقديم.

٣) إن ما نسبه المؤلفون إلى أعلام الصحابة والتابعين: كعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم في دعواهم ترتيب القرآن النزولي لم يصح بحال من الأحوال أنها دعاوي، وإذا لم يقم أصحابها عليها البينات فهم أدعياء.

٤) إن ترتيب نجوم القرآن حسب النزول أمر صعب المنال، ولكنه في حيز الإمكان، وهو على غاية من الأهمية في التفسير الموضوعي الذي بدأ الاهتمام به في الدراسات الإسلامية، والمزلة فيه خطيرة لها آثارها السيئة، ونتائجها الوخيمة في استنباط الأحكام. كما أنه على جانب عظيم من الأهمية؛ لبيان حكمة الله التشـــريعية في البعد عن الطفرة والمفاجئة، وأخذ الناس بالسهولة واليسر، والرفق. فلم ينزل تحريم الخمر والزنا مرة واحدة، بل لو وقع التحريم من أول الأمر: لا تزنوا، ولا تشربوا الخمر، لقالت العرب: لا ندع الزنا، ولا شرب الخمر، كما ورد في الآثار؛ لأجل ذلك وردت النجوم القرآنية، يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، فشرع الله لهم ما يبعدهم عن المحرمات، رويدًا رويدًا، حتى إذا تمهد الجو جاء الحكم الصـــريح الجازم في تحريم من يفعل المحرمات.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

ثبت بالمصادر والمراجع

- إبراهيم خليفة، تفسير سورة النساء، كلية أصول الدين، القاهرة.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، قرأ أصله تصحيحًا، وتحقيقًا، وأشرف على مقابلة نسخه المطبوعة، والمخطوطة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، نشر وتوزيع: إدارات البحوث العلمية، والإفتاء، والدعوة، والإرشاد (سابقًا)، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- ابن ضريس، محمد بن أيوب البجلي، فضائل القرآن، مخطوط بجامعة الملك سعود (الرياض)، وقد طبع بدار الفكر، بدمشق عام ١٩٨٧م.
- حولية أصول الدين، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، عدد عام ١٩٩٥م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، عيسى البابي الحبي وشركاه، القاهرة.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة العاشرة، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
- عبد المجيد المحتسب، اتجاهات التفسير في العصر الراهن، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة الإسلامية ١٤٠٢هـ، عمان، الأردن.
- القرعاوي، سليمان بن صالح، البيان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة، مطابع الشاطئ الحديثة، ١٤١٨هـ، الدمام، المملكة العربية السعودية.
- محمد عزة دروزه، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨١هـ.
- النحاس، محمد بن إسماعيل، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، عُني بتصحيحه: محمل أمين الخانجي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر١٣٢٣ هـ.